ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٨ —

— كان فضيلة الشيخ دعاس العيسوى والد عبد الحسيب يقيم بالزمالك ، أعنى فى بولاق

— ما هذا الخلط يا ظمياء ؟

— كنا نفهم أنه يقيم بالزمالك ، ثم عرفنا أنه يقيم فى بولاق ، وقد فهمنا أن سكان بولاق يحبون أن يسموا محلتهم زمالك

— شىء غريب !

— وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ إن بولاق تشرف على النيل كما تشرف عليه الزمالك

— ولكن بولاق فى الضفة الشرقية ، والزمالك فى الضفة الغربية ، فبولاق شرق ، والزمالك غرب ، والشرق والغرب لا يلتقيان

— إيش لون ؟

— هذه معان لا يفهمها غير الفلاسفة يا ظمياء

— وكنت أذهب فى صحبة ليلى إلى منزل الشيخ دعاس العيسوى ، وكان شيخاً يقارب الستين ، ولكنه كان أعجوبة الأعاجيب فى مغازلة النساء . كان يصوّب بصره إلى ليلى ويقول: « يا بنت يا كهرباء » وكانت ليلى ترتاح لهذا الوصف الطريف . ولعلها كانت تود لو سمعت هذه العبارة الطريفة من عبد الحسيب ، وكانت السيدة نجلاء ...

— هل تعرفين شيئاً من تاريخ نجلاء ؟

— أعرف كل شىء : كانت فتاة خفيفة الروح عرفها الشيخ دعاس وهو يصطاف في لبنان قبل الحرب بأعوام طوال ، فتزوجها ونسى من أجلها زوجته وأبناءه في (ثمون)

— وهى أم عبد الحسيب ؟

— بالتأكيد ، وعنها ورث خضرة العينين

— فهمت . هاتى بقية الحديث

— وكانت ليلى ترفض الجلوس على المائدة مع الشيخ دعاس وابنه عبد الحسيب ، ثم استأنست بعد حين ، فقد اطمأنت إلى شرف القلوب فى ذلك البيت . وكان فضيلة الشيخ دعاس يتناول على المائدة دواء كُميت اللون يصلح الأمعاء . وكان هذا الدواء يُحفَظ فى صِوان خاص ويُقدَّم إليه فى الغداء والعشاء . وفى ظُهر يوم طُرق الباب وأعلن الخادم قدوم الشيخ الزنكلونى فأسرعت ربة البيت وأخفت زجاجة الدواء . ودخل الشيخ الزنكلونى فرأيناه رجلاً عليلاً وعجبنا كيف يبخل عليه الشيخ دعاس بقطرة من الدواء الذى يصلح الأمعاء

— عمن تلقيتِ دروس اللؤم يا ظمياء ؟

— تلقيتها عن طبيب مصرى يقيم في بغداد

— وأين عيادة هذا الطبيب ؟

— هو طبيب بلا عيادة ، على وزن وزير بلا وزارة

— فهمت . ويسرني أن يكون تلاميذى جميعاً أذكياء .

وماذا صنع الشيخ الزنكلونى حين رأى ليلى ؟

— قبّل جبينها وقال : أنت درية ؟ فلما عرف أنها فت — من العراق قبّل جبينها مرة ثانية وقال : أنا أحب العراق ونسائم العراق وجميع ما يرد من وطن أبى حنيفة النعمان . إسمعى يا بنيتى ، أنا من الشافعية ، ولكني أستظرف الحنفية

وهنا تدخل الشيخ دعاس فقال : ولكن أبو حنيفة كان يبيح النبيذ

فثار الشيخ الزنكلونى وقال : هذه دسيسة مذهبية ، فما أباح أبو حنيفة النبيذ ، وإنما أباح العرقسوس

وتشجعت ليلى فقالت : رحم الله أبا حنيفة فقد كان يعرف أن العرقسوس يصلح الأمعاء

وكانت أول مرة فهم فيها الشيخ دعاس أن ليلى لم تكن من الغافلات

ثم دعانا الشيخ الزنكلونى لزيارة منزله فى حارة أم الغلام

— وزارته ليلى هناك ؟

— وعدت ثم أخلفت ، فقد رابها تظرف المشايخ

— ضيعتم فرصة ثمينة يا ظمياء . فما الشيخ الزنكلونى متظرفاً وإنما هو ظريف

— سنزوره حين نرجع إلى مصر يا مولاى

— ومتى ترجعون إلى مصر ، يا ظمياء ؟

— حين تسمن الأسماك

— ومتى تسمن الأسماك ؟

— حين ينضج التوت

— ومتى ينضج التوت ؟

— حين تعقل ليلى وترجع إلى التلطف مع طبيبها النبيل

— إذاً لن ينضج التوت ولن تسمن الأسماك

— صبراً يا دكتور فان الله مع الصابرين

— سأصبر يا طفلتي الغالية ... ولكن كيف كانت ليلى مع عبد الحسيب ؟

— كانت تتغطرس عليه كما تتغطرس عليك ، فتتجاهل ما تملي عليه الصبابة من نظرات وأحاديث . والمحبون يتغطرسون لأنهم أذلاء ، ولو كانوا على شيء من العزة لاحتقروا الكبرياء . وهذا هو السبب في أن الأحباب يُحرم بعضهم عطف بعض . فالحبيب يريد أن يذل له المحب ، والمحب يريد أن يذل له الحبيب ؛ وفي ظلمات هذا العناد السخيف تنفصم الأواصر والصلات . وكان المسكين عبد الحسيب يسلك إلى قلب ليلى كل سبيل . كان يحتال ليظفر منها بابتسامة . كان يُغرب في سرد أخبار الشيخ كراوية

— ومن الشيخ كراوية يا ظمياء ؟

— أستاذ كان يدرس اللغة العربية بمدرسة المساعي المشكورة بالزقازيق .

— أنت جاهلة يا ظمياء ، فمدرسة المساعي المشكورة في شبين الكوم لا في الزقازيق

— أؤكد لك أنها في الزقازيق . ولك أن تسأل ليلى فعندها الخبر اليقين

— إذا أخذت العلم عن ليلى فعلى العلم العفاء

— وكان عبد الحسيب يقف فيقلد صوت الشيخ كراوية وهو ينشد قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وكان يصوّب بصره إلى ليلى حين يصل إلى عبارة « وهن أضعف خلق الله إنساناً »، وكان يرضيها أن ترى هيامه بها فتبالغ في التغطرس والازدهاء

وفي إحدى العصريات دخل عبد الحسيب غضبان فانزعج الشيخ دعاس وانزعجت السيدة تجلاء ، فنظرت إلى وجه ليلى فرأيته يشبه دجلة في أيام نيسان

— إيش لون ؟

— وأنت يا مصري تقول « إيش لون ؟ »

— إيش لون ؟ إيش لون ؟

— دجلة في نيسان تحاول من فرط الشوق والحيوية أن تلطم وجه بغداد

— وكانت ليلى تحب أن تلطم وجه عبد الحسيب ؟

— كانت تهمّ بافتراسه لأنها كانت تنكر أن يدرك معنى البؤس وهي في دنياه

— كانت تحبه ؟

— وأي حب ؟ وهل في الدنيا فتاة تحبس قلبها عن فتى وافر الرجولة متين الأخلاق ؟

— وما هي أسباب ذلك الغضب الذي سيطر على عبد الحسيب؟

— قال إنه تاقى محاضرة في مدرسة البوليس ألقاها الصاغ علي حلمي عن « القوة المعنوية » فثار صدره وعجب كيف يعجز عن التسلح بالقوة المعنوية ، وجلس على المائدة وهو في غاية من العقل ، فلا نوادر ولا فكاهات ، ولا الشيخ كراوية ولا عبد الله شعيب . فعرفت ليلى أن الشاب ابتدأ يحاربها بلا رحمة ولا إشفاق. آه ، ثم آه !

— لا تتأوهي يا ظمياء فقد مزقت قلبي

— تحبني يا مولاي ؟

— استحي يا ظمياء فأنت في حضرة طبيب

— وبعد ليال دعتنا السيدة تجلاء لسماع المغني عبد اللطيف البنا في ملاهي المعرض فسمعناه يقول :

« سلامة القلب من حبك يا قاسي »

فتحدرت مدامع ليلى وأصابها إغماء . وكانت ليلة قضيناها في كروب وأشجان . وفي الليلة التالية صممت ليلى على أن نذهب وحدنا إلى ملاهي المعرض ، فسمعنا أم كلثوم تغني

يا للي شغلت البال ياليتْ أكون على بالك
الوجد له أحوال يا ليتني أعرف حالك

فأخذت ليلى تبكى بكاء لا تجود بمثله عيون الأطفال ، فخشيت أن نفتضح وأخذتها فى سيارة إلى المنزل الذى كنا نقيم فيه بشارع قصر النيل ، وانحبسنا عن جميع الناس ثلاثة أسابيع

— ثم ماذا ؟

— ثم تفضل الشيخ دعاس والسيدة نجلاء والآنسة درية بالسؤال عنا فتشجعت ليلى وسألت عن عبد الحسيب ، فابتسم الشيخ دعاس وقال : تحبينه يا ليلى ؟ فقالت : ما أحبه ، وإنما أشتهى أن يحدثنى مرة ثانية بحكايته يوم تشيطن فأخذ زجاجة الزيت وملأ بها حابر زملائه من التلامذة الأقباط حين كان تلميذاً بمدرسة المساعى المشكورة الثانوية

وقهقه الشيخ دعاس وهو يقول : وما رأيك يا ليلى إذا كان التلامذة الأقباط أصبحوا يوجبون بوضع الزيت فى محابرهم على أيدى التلامذة المسلمين ؟

ولم تفهم ليلى ما يريد ، فاستطرد الشيخ دعاس قائلا : تحن ائتلفنا يا بنيتى على يد الشيخ الصالح سعد زغلول ، وأنا وضعت قواعد الائتلاف قبل سعد زغلول، فزوجتى نجلاء كانت مسيحية وأسلمت لتربط بين مصر ولبنان . فما رأيك لو خطبتك لعبد الحسيب ؟

فاستأنست ليلى وقالت : هل قرأت يا فضيلة الشيخ أخبار عمر بن أبي ربيعة ؟

فقال : ما قرأتها ، لأن أخبار عمر بن أبى ربيعة لا تدرس فى الأزهر الشريف

فقالت ليلى : كان ابن أبى ربيعة يستهوى جميع النساء اللائى يشهدن موسم الحج ، إلى أن فتنته امرأة عراقية ، فراودها عن نفسها فاستعصمت ، فخطبها لنفسه فأبت وقالت : تعال إلى العراق واخطبنى من أهلى . وكان ابن أبى ربيعة ماجناً فلم يتبع معشوقته إلى العراق ، وحرمه المجون من التشرف بمصاهرة أهل العراق . فان كان عبد الحسيب صادقاً فى حبى فليمض إلى العراق وليخطبنى من أهلى هناك

وعرف الشيخ دعاس أن هزل الحب جد ، فانصرف وهو مكروب !

— ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— ثم انتظرنا أسابيع فلم يسأل عنا الشيخ دعاس ولا ابنه عبد الحسيب ، فرجعنا إلى العراق ونحن نبكى سلامة الأخلاق فى بلاد الفراعين

— شيء مزعج ، شيء مزعج !

— لا تحزن يا مولاى ولا تبتئس ، فقد وقعت أعاجيب

— أفصحى يا ظمياء

— فى اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٦ طرق الباب زائر غريب، فنظرنا فاذا هو الضابط عبدالحسيب بعينيه الخضراوين وقوامه الرشيق ؛ وهجمت ليلى عليه فقبلت جبينه وخديه بلا تهيب ولا استحياء ، ودعوناه للنزول فى ضيافتنا فرفض، وقال إنه جاء لخطبة ليلى، وإنه ظفر بدبلوم مدرسة البوليس، وإنه مرشح لرياسة نقطة النعناعية ، فنظرت ليلى إليه بعينى البؤة العادية وقالت : لن أقبل يدك أو أختبر أخلاقك!

— ثم ماذا ؟

— ثم استيأس الشاب المسكين وقال : وبأى صورة أعيش فى بغداد ؟ فقالت ليلى : ذلك إلىّ

— ثم ماذا ؟

— ثم تحمّلتْ ليلى بأهلها ومعارفها إلى نورى باشا السعيد وكان يومئذ وكيل القائد العام ، وكان برتبة زعيم فألحق الضابط عبد الحسيب بالجيش العراق بحجة التقريب بين مصر والعراق

— شيء جميل !

— انتظر يا دكتور ، فقد أفسدتْ ليلى كل شيء

— وماذا صنعت الحمقاء ؟

— بثّتْ من حوله العيون لترى كيف يفكّر وكيف يصنع، فصح عندها أنه كافر بالحب وكافر بالمروءة فأصلته نار الصدود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم رحل المسكين إلى مصر بدون أن يستأذن رئيسه نورى باشا السعيد

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم خلت حياة ليلى من حبيبها الغالى فلم تعد تعرف طعم الحياة و الفها الضنى والنحول

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم علم الشاب المسكين بمرض محبوبته الذالية فلاذ بأمه الرءوم فمضت إلى الأستاذ خليل مطران تستفتيه ، فكان من رأيه

أن يُنتقَم من ليلى بطريقة دولية تضجّ لهـا المشارق والمغارب ، وصحّ عنده أن تغنى السيدة نادرة هذا البيت :

يقولون ليلى فى العراق مريضةٌ فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أشار بوضع هذا الصوت فى شريط « أنشودة الفؤاد »

— ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— ثم تنكّر أهل العراق لذلك الشريط وقاوموه غيرةً على ليلى فلم يعرض فى بغداد غير مرات معدودات

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم لطف الله بليلى فجاء الدكتور زكي مبارك لمداوتهـا منتدباً من الحكومة المصرية

— وما الرأى ياظمياء إذا عُوفيتْ ليلى ومرض الطبيب ؟

— الأمر يومئذ لله

* * *

ليلى ، ليلاى

أنت تعلمين أننى تركت فى سبيلك وطنى وأهلى . أنت تعلمين أن صحتى اعتلتْ وأننى أعيش على منقوع الفواكه منـذ أسابيع وأسابيع . أنت تعلمين ما أنا صائر إليه إن دام هـذا الصدود . أنت تعلمين أنى ضحية الواجب والعقيدة والوجدان . فما هذا التجنى ياليلى وأنا ما خنت المروءة ولا كفرت بالحب ؟

أحبك ياليلى ، أحبك ، فاصنعى بقلبى ومصيرى ما شئت وشاء الهوى وشاء الدلال

أحبك ياليلى فى غضبك ورضاك . أحبك حبّاً ماسبقنى إليه سابق ، ولن يلحقنى فيه لاحق . أحبك ياليلى وأحب من أجلك جميع مافى الوجود حتى قيظ بغداد . أحبك ياليلى وأرى وجهك مسطور الملامح والتقاسيم فى كل ماتقع عليه عيناى . أحبك وأحب من أجلك نعيم الحياة وبؤس الحياة ؛ وما أحب الحياة لنفسي ياليلى فقد شبعت منها وروِيت ، وإنمـا أحب الحياة ليبقى لك فى الدنيا محب صادق يرى الضلال فى هواك أشرف من الهدى، ويرى الظلام فى هواك أكثر إشراقاً من بياض الصباح

أحبك ياليلى وأتمنى ألا تحبينى ؛ فما يرضينى أن تعانى فى الهوى بعض ما أعانى

أنا أكره لك يامعبودتى أن تذوقى ملوحة الدمع ، وأن تهيمى بعدَ نجوم الليل ، وأن تقفى موقف الجمود أمام الأزهار والأشجار والأنهار فلا تدركين كيف يبتسم الوجود

* * *

— ظمياء !

— عيونى !

— ظمياء !

— عيونى ، دكتور زكي ، عيونى !

— خذى بزمامى إلى الجحيم

— وأين الجحيم يا مولاى ؟ حماك الله ونجاك !

— أين الجحيم ؟ أماتعرفين؟ خذى بزمامى إلى دار ليلى عـلّنى أعرف مصيري فى هوى تلك الظلوم

— فى هذا المساء ؟

— فى هذه اللحظة

— إنتظر حتى أراها وأرجع إليك، فان اصطدام العاشقين فى فورة الغضب قد يحملك على أن تمن عليها أو تجرها إلى أن تمن عليك ، والمن يصنع بالحب ما تصنع النار بالخلفاء

« للحديث شجون »

زكى مبارك

مؤلفـــات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة

وكتب الزراعة تطلب من

شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا